83 - السيدة حليمة السعدية

مرضعة خير الأنام ﷺ

اسمها حليمة، والدها عبد الله بن الحارث بن شجنة وزوجها الحارث بن عبد العُزَّى بن رفاعة ويقال له: «الحارث السعدي».

كانت نساء قريش قد اعتدن بعد أن يلدن إرسال المولود إلى البادية حتى يرضع لدى إحدى المراضع، ويكتسب صحَّة ونشاطاً، وحين وُلد نبي الرحمة ﷺ أخذته حليمة لترضعه، ففاضت عليها البركات، وشملتها الرحمات، وفاض الخير في ديارها من بركته، فكانت حليمة ترضعه، وابنتها الشيماء بنت الحارث تحضنه.

وخرجت به ذات يوم حارٌ قد اشتدَّ حرَّه دون علم أمها، فلما اكتشفت حليمة ذلك انطلقت في إثرهما وراحت تؤنِّب ابنتها بانفعال شديد على خروجها به إلى الحر، لكنها سكنت حين سمعت ابنتها تقول: لا تخافي يا أماه على أخي القرشي، فقد رأيت غمامة تظلُّه، تسير معه إذا سار، وتقف إذا وقف.

وكانت لحليمة بضعة غنيمات تبعث بها مع ابنتها إلى المرعى، فإذا رجعت وجدتها حُفلاً لُبَّناً، وكانت شياه صواحبها تعود عجافاً كما ذهبت، فكنَّ يقلن للرعاة: ويلكم اسرحوا حيث تسرح أغنام حليمة، ولكن كان زوجها الحارث يقول: إن ما نحن فيه بسبب هذا اليتيم المبارك.

ولما انتهت مدة الرضاع، عادت حليمة إلى آمنة بنت وهب بطفلها، وهي بادية الحزن على فراقه، لأن بركته وخيره قد حلاَّ بديارها منذ أدخلته بيتها.

وأخذت ترجو آمنة أن تسمح لها بالرجوع به ومدِّ فترة رضاعه حتى يشتدَّ عوده، ويزداد صحَّةً ونشاطاً، وأمام لهفة حليمة وإلحاحها أذنت لها آمنة بالعودة به إلى ديار بني سعد.

كانت فرحة الحارث السعدي وأسرته بامتداد ضيافة اليتيم المفدَّى لديهم أجلَّ من أن تُوصف، فالشيماء أصبحت مولعة به، وهي تحبه أكثر من أخيها ابن أمها وأبيها، إنها ترقِّصه وتقول له:

يَا رَبَّنَا أَبْقِ أخي مُحَمَّدَا حَتَّى أَرَاهُ يَافِعاً وَأَمْرَدَا
ثُمَّ أَراهُ سَيِّداً مُسَوَّدَا واكْبُتْ أَعَادِيْهِ مَعَاً والحُسَّدَا
وَأَعْطِهِ عِزّاً يَدُومُ أَبَدَا

وتقول في مقام آخر:

هذا أَخٌ لي لَمْ تَلِدْهُ أُمِّي
وليس مِنْ نَسْلِ أبي وَعَمِّي
فَأَنْمِهِ اللَّهُمَّ فِيْمَا تُنْمِي

حادثة شق الصدر

وذات يوم خرج ابن حليمة ببعض الشياه خلف البيوت، وبصحبته الحبيب المُفدَّى، ثم عاد ينادي أمه وأباه وهو يلهث، فأسرعا إليه ليعلما ما وراءه؟ فأخبرهما أن رجلين عليهما ثيابٌ بيض أضجعا أخاه القرشي، وشقَّا بطنه، ثم أخرجا شيئاً لا يعلم ما هو، ثم أعاداه، وأدركاه فإذا هو ممتقع اللون، فرجعا به، واستأمرت حليمة زوجها في ردِّه إلى أمه قبل أن يقع عليه مكروه.

ولم تستطع حليمة أن تكتم الأمر عن آمنة، فقالت لها: إن لابني هذا لشأناً.

نعم لقد جاءه جبريل عليه السلام على رأس الأربعين من عمره يحمل إليه رسالة الإسلام إلى الناس كافَّةً، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

إسلامها

وبعد انقضاء قرابة خمسين عاماً على فراق حليمة لرضيعها العظيم، جاءت مع ابنتها الشيماء إلى رسول الله ﷺ، وأسلمتا بين يديه، فرحَّب بهما وبالغ في إكرامهما.

روى أبو داود في سننه عَنْ عُمَارَةَ بْنَ ثَوْبَان أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ أَخْبَرَهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْسِمُ لَحْماً بِالْجِعِرَّانَةِ - قال أبو الطُّفَيْلِ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلامٌ أَحْمِلُ عَظْمَ الْجَزُورِ - إِذْ أَقْبَلَتْ امْرأَةٌ حَتَّى دَنَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَبَسَطَ لَها رداءَهُ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فقُلْتُ: «مَنْ هِيَ؟» فَقَالوا: «هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ»[1].

رحم الله المرضع والحاضنة، وأحسن إليهما.

(1) رواه: أبو داود/ كتاب: الأدب/ باب: بر الوالدين/ برقم: (4478).